مفهوم الحداثة عند يوسف الخال.

د. سهيل عبد اللطيف الفتياني

كلية الآداب والفنون – جامعة حائل – المملكة العربية السعودية

المُلخَص

يهدف هذا البحث إلى تقديم قراءة نقدية لفكر يوسف الخال، من خلال مقاربة مفهومه للحداثة. حيث تظهر لديه بوصفها رؤية حديثة وشاملة للواقع يندرج فيها الإنسان والوجود والفن.

يرصد البحث أبرز سمات هذا المفهوم وملامحه، مجليا عناصره الأساسية. ويتتبع أهم منطلقاته الفكرية والنقدية . كما يسعى إلى تسليط الضوء على جملة من إشكاليات الحداثة وتحدياتها وأوهامها، كما تتجلى في موقفها من الماضي، وفي طبيعة ارتباطها بالعصر. ويكشف البحث عن ثغرات هذا المفهوم ، وخصوصا : في رؤيته لطبيعة علاقة الحداثة بالواقع ، وفي موقفه من الثقافة الغربية، والأنجلو أمريكية بالتحديد، والنظر إليها على أنها النموذج الأكمل للحداثة.

الكلمات المفتاحية: الحداثة، التراث، الآخر، النزعة الإنسانية، مجلة " شعر"

مُقَدِمَةُ :

شكلت تجربة يوسف الخال (١٩١٧- ١٩٨٧) حضورًا واسعًا في النقد العربي، ولقيت اهتماما مكثفا لدى النقاد والباحثين؛ بحكم موقعه البارز في الحداثة الشعرية العربية، وبوصفه أحد روادها الأوائل .

يتسم هذا الحضور بإشكاليته، فقد تضاربت الأحكام حول تقييم هذه التجربة وموقعها في الثقافة العربية؛ بسبب المواقف الجريئة التي اتخذها الخال، وحركة مجلة " شعر" عموما، من التراث العربي، واللغة العربية، وطبيعة العلاقة بالغرب.

تستند أهمية الخال إلى دوره الريادي في حركة الحداثة، على المستويين التنظيري والإبداعي، فقد أدى من خلال إشرافه على مجلة "شعر" دورًا مهما وحاسما في إحداث تغيير جوهري في حركة الشعر العربي ما زالت أصداؤه ماثلة بجلاء . وقد سعى- ومعه شعراء المجلة ونقادها- إلى تكريس رؤى تنظيرية وإبداعية جديدة تستهدف خلخلة البنية الثقافية السائدة وتجاوز حالة الركود المهيمنة على المشهد الثقافي و الشعري العربي. وقد أسهمت هذه الرؤى بصورة فاعلة في إشاعة مناخ حداثي تسود فيه قيم إبداعية جديدة تتسم بالجدة والعصرية والانفتاح غير المحدود على الثقافية الغربية؛ انطلاقا من ضرورة الدخول الحقيقي في الحضارة الراهنة والمشاركة الفاعلة في الثقافة الإنسانية. فكانت بذلك بمثابة مشروع ثقافي شامل ترك أثره الواضح في النقد العربي، فعلى الرغم من مرور ما يزيد على نصف قرن منذ انطلاقته عام ١٩٥٧ فقد ظل هذا الحضور واضحًا حتى هذه اللحظة؛ إذ ما تزال كثير من الدراسات والمقالات تتناول هذا المشروع ، وتعيد طرح كثير من القضايا التي تناولها الخال وشعراء المجلة ونقادها عموما.

ثمة إجماع بين نقاد الحداثة على أولوية الخال في تأسيس مشروع الحداثة الشعرية ، واعتباره "مؤسسًا لنظرية الحداثة "[١]، وعلى أنه "كان السباق إلى تفجير الأسئلة الأساسية في حركة الحداثة"[٢]. ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن الخال يعد من النماذج القليلة التي تبنت الحداثة إلى أبعد حد، فقد أولاها عناية خاصة، وظل يبشر بها ويدافع عنها إلى آخر لحظة من حياته، فقد اختار" طريق الحداثة الذي لا يغني عنها شيء آخر ٠٠٠ الحداثة الخالصة من كل رقابة، المفرغة من أسلحة أعدائها، المتحدة بأهدافها العليا." [٣].

يقتضي بنا المقام الوقوف على ملامح من سيرته الثقافية للكشف عن أهم مرتكزات مشروعه النقدي والإبداعي، وتلمّس أبرز بواعثه. نشير في البداية إلى أن مسيرته الثقافية مرت بثلاث

---

[١] طراد، جورج، على أسوار بابل، صراع الفصحى والعامية في الشعر اللبناني الحديث، تجربة يوسف الخال، دار الريس للنشر والتوزيع، بيروت ، ٢٠٠١، ص ٤٦

[٢] السامرائي، ماجد، تجليات الحداثة ، ط١ ، الأهالي للطباعة والنشر، دمشق ، ١٩٩٥ ، ص١٤٦

[٣] هيئة التحرير، في عامنا الثاني، أدب ، شتاء ، ١٩٦٣، ص٦

محطات مهمة [٤]، كانت بمثابة مرجعيات فكرية وثقافية كان لها أثر واضح في تشكيل فكره الحداثي. أولى هذه المحطات كانت الجامعة الأمريكية ببيروت حيث درس فيها الفلسفة، وتأثر،على نحو خاص، بأستاذه (شارل مالك)، وخصوصًا في نزعته الوجودية الإنسانية وتمحورها حول الفردية أو الكيانية . المحطة الثانية مثلت انتسابه إلى الحزب القومي السوري الاجتماعي الذي كان يتزعمه (أنطون سعادة)، وقد كان لآرائه الفكرية والسياسية والأدبية دور مهم في توجيه نظرية الخال الفكرية والشعرية، وبخاصة في دعوته إلى الانفتاح على التراث الإنساني بمعناه الشامل الذي ينطلق من الإطار المحلي ويتجاوزه إلى الإطار المتوسطي، ليغدو الغرب بذلك شريكا حضاريا فاعلا. كما تأثر بسعادة في دعوته إلى تجديد الفكر والثقافة والفن، وتبني(نظرة جديدة للإنسان والحياة) التي تمثل المحور الرئيسي في مفهوم الخال للحداثة.

أما المحطة الثالثة في مسيرته الثقافية فكانت في فترة إقامته في الولايات المتحدة لعدة سنوات، وتحديدا بين عامي (١٩٤٧-١٩٥٥). حيث تبلورت لديه فكرة تجديد الشعر والثقافة بشكل واضح في أثناء إقامته في أمريكا واطلاعه عن كثب على الحركة الشعرية والثقافية هناك، وتأثره بأبرز تياراتها وبخاصة (المدرسة التصويرية)، فقد تأثر بآرائها حول تجديد الشعر ، وبخاصة إلحاحها على لغة قريبة من الواقع .كما تأثر بمدرسة (النقد الجديد)، وتبنى وجهة نظر نقادها حول طبيعة الشعر ودوره.

وقد راودته في أثناء تواجده في أمريكا فكرة تأسيس مجلة شعرية على غرار مجلة شعر(poetry) التي كان يصدرها التصويريون بإشراف الشاعر(أزرا باوند) أحد أهم مرجعياته الثقافية. وعمل - فور عودته إلى لبنان بشكل مكثف - على تحقيق طموحه في تأسيس مشروع شعريّ ثقافي يحمل على عاتقه مسؤولية إخراج الشعر العربي من جموده وانغلاقه، ويؤسس لمرحلة شعرية جديدة منفتحة على التجارب الجديدة في الغرب. فقام باستقطاب عدد من الشعراء والنقاد اللبنانيين والعرب ممن شكلوا نواة تجمع مجلة (شعر)، أو ما يطلق عليه الخال (حركة الشعر العربي الحديث).

وقد سبق الإعلان عن تأسيس التجمع محاضرة شهيرة له ألقاها في الندوة اللبنانية بعنوان " مستقبل الشعر في لبنان" تعرض فيها للمشهد الشعري في لبنان منذ بداياته وصولًا إلى اللحظة القائمة، فكانت - كما يرى (أدونيس) " بمثابة البيان النظري الأول عن الحداثة الشعرية العربية" [٥]، وقد بشّر في ختامها بقيام " شعر طليعي تجريبي" يؤسس لمرحلة جديدة في الشعر العربي.

استمرت المجلة بالصدور على مرحلتين بين عامي (١٩٥٧ - ١٩٧٠) تخللها توقف بين عامي (١٩٦٤-١٩٦٧) . وقد أثارت المجلة جدلا واسعًا في الأوساط الثقافية؛ بسبب ما أثارته من قضايا ثقافية وفكرية تمتاز بالحساسية والخصوصية الشديدة في الثقافة العربية السائدة في تلك المرحلة: كالموقف من اللغة العربية ، والتراث العربي ، والعلاقة بالغرب. وقد كان من الطبيعي أن تواجه مثل هذه المواقف الجريئة بردة فعل عنيفة من هذه الأوساط تجاوزت حدود الموضوعية، وحملت طابعًا أيدولوجيًّا واضحًا، لا سيما مع شيوع التوجهات القومية والاشتراكية في تلك الآونة.

وقد مثلت المجلة له المنبر الثقافي الذي طرح من خلاله أبرز آرائه حول الحداثة، وظل ملتزمًا بها بعد توقفها عن الصدور. فقد تابع تبنيه لآرائه عبر منابر مختلفة من خلال اشتغاله بالصحافة اللبنانية، ونشر كثيرًا منها في مرحلة متأخرة في كتابه (ذاكرة الأيام).

إن قراءة فاحصة ومتأنية لمجمل نتاجه الفكري والأدبي تكشف عن انحيازه غير المحدود للحداثة، وعلى اعتبارها خيارا فكريا وإبداعيا نهائيا لا تراجع عنه. فهي تمثل (الثيمة) الأساسية والنسق الثقافي الذي يجمع شتى رؤاه وتصوراته.

و التساؤل المشروع هنا: ما طبيعة الحداثة التي يدعو إليها الخال؟ وما أبرز سماتها وإشكالياتها؟ وما أبرز المرجعيات الفكرية والنقدية التي استندت إليها، وأخيرا ما هي ثغرات تصوره الحداثي؟

الحداثة مفهوم شمولي:

ليست الحداثة في جوهرها أمرا طارئًا على حياتنا المعاصرة؛ إذ إن الإنسان منذ نشأ مسكون بهاجس التجدد والتطور؛ نظرا لحاجته الملحة إلى تغيير نمط حياته وطريقة تفكيره، وإلى تحقيق وضعية اجتماعية وفكرية تواكب حياته الجديدة.

ولذلك كله تغدو الحداثة، بوصفها رؤية وممارسة، ضرورة ملحة للأفراد والمجتمعات على السواء ، فكلنا متورطون بالحداثة كما يقول الشاعر محمد بنيس. ولعل في هذه الحاجة الملحة للحداثة ما يسوغ سيرورة حضورها في الثقافة المعاصرة في شتى مجالاتها واتجاهاتها.

لعل أول ما يلحظه المتتبع لهذا الكم الهائل مما يكتب عن الحداثة الالتباس والاضطراب في هويتها. ثمة إجماع بين المفكرين والنقاد على صعوبة الوقوف على تعريف محدد وشامل لمصطلح

---

[٤] ولد يوسف الخال عام ١٩١٧في قرية (عمار الحصن) الواقعة شمال سورية، ثم انتقل مع عائلته في سن مبكرة إلى لبنان حيث استقر فيها بصورة دائمة إلى أن توفي عام ١٩٨٧. انظر ترجمة سيرته الثقافية في: الساسي، جاك، يوسف الخال ومجلته شعر، ط١ المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، بيروت، ٢٠٠٠٤.

[٥] أدونيس، ها أنت أيها الوقت، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٣، ص٦١

الحداثة (modernity)، حيث يوصف بأنه "مصطلح مراوغ، متقلب، ينطوي تحديده على صعوبة بالغة التعقيد "[٦]. على أن بالإمكان أن نؤرخ لولادة الحداثة بلحظة اكتشاف الذات، وقد أفضت هذه اللحظة العودة من قطيعة مع الرؤية التقليدية للوجود التي ظلت مهيمنة على الفكر الإنساني فترات طويلة،. وبهذه العودة ، تولدت فكرة الحداثة في تأكيدها على الفعالية الإنسانية ودورها المحوري في العالم . وقد أسهم هذا التصور الجديد في إحداث تحولات جذرية وشاملة كان له دورٌ فاعل في تأسيس مجتمع حديث في شتى مكوناته تشيع فيه التصورات والقيم الحديثة.

وبموجب هذه النزعة الشمولية تغدو الحداثة ممارسة شاملة لكل جوانب الحياة؛ في علاقة الإنسان بالطبيعة والسيطرة عليها، وفي عقلنة المجتمع بكل مظاهرة السياسية والثقافية والتقنية[٧]، وأخيراً في إنتاج رؤية شاملة للكون والإنسان والحياة. ويلخص(بوديار) هذه النزعة بقوله: " ليست الحداثة مفهومًا سوسيولوجيًا ولا مفهومًا سياسيًا . وليست بالتمام مفهومًا تاريخيًا، بل هي نمط حضاري خاص يتعارض مع النمط التقليدي "[٨]. يتجلى هذا النمط الحضاري الشامل على شكل "دولة عصرية، تقنية عصرية، وموسيقى، ورسم، وعادات، وأفكار عصرية على هيئة مقولة علمية، وضرورة ثقافية"[٩].

في ضوء هذه التصور، تنهض الحداثة في فكر الخال بوصفها " نظرة حديثة إلى الوجود "[١٠]. وأول ما يميز هذه النظرة شموليتها فهي " نظرة شاملة إلى الحياة بما فيها الإنسان و الوجود". وهي في تعريف آخر له " نظرة إلى الكون والحياة و الفن "[١١]. و لا يتوقف الأمر عند حدود (النظرة) بل يتجاوزها لتكتسب عمليًا واضحًا يظهر على شكل " موقف كياني من الحياة "[١٢].

والملاحظ أن مفهوم الحداثة هنا غير محصور في إطار أدبي وفني ضيق، كما نجد في كثير من التظيرات التي عنيت بتجديد الأدب؛ إذ يندرج الشعر فيها باعتباره أحد أهم النشاطات الإبداعية " بوصفها أحد أبعاد ووجوه الحداثة بمعناها الشامل الذي يشمل مختلف حقول النشاط الإنساني "[١٣] ، وهو ما يتضح في طموحه صوب " توجه مفهومي جديد كان يتجاوز أحيانًا الشعر ليبلغ جماع الموقف الثقافي والأنطولوجي بوجه عام "[١٤]. والجديد في هذا الطرح لتجديد الشعر إدراج المسألة الشعرية في السياق الثقافي والاجتماعي. وهو ما يتضح في طرحه لجل القضايا الجوهرية كالموقف من اللغة والتراث والثقافة الغربية[١٥]. تتضح هذه السمة الشمولية من محاولته تأصيل مفهوم مصطلح (حديث) حيث تكتسب دلالة واسعة تشمل " جميع وجوه الحياة في زمننا، فتقول شعر حديث، وموسيقى حديثة ، وفن حديث، وفلسفة حديثة... إلخ "١٦.

تمثل الحداثة العربية في جوهرها مشروعًا نهضويًا غايته الخروج بالمجتمع العربي من تخلفه التاريخي، ووضعه في المقابل في سياق الصيرورة التاريخية. فقد انبثقت من الداخل كضرورة اجتماعية وفكرية، وظهرت " كمشروع حضاري طرحته النخبة العربية عامة لتحويل العالم العربي من مسار الاستعباد والقهر والتبعية إلى الدخول في الرهان الحضاري "١٧. وقد تبلورت فكرة الحداثة في الفكر العربي مع سياق تاريخي اتسم بتخلّف البنى الاقتصادية والثقافية، فكان لا بد من تجاوزها إلى بنى حديثة.

في ضوء ذلك، ينظر الخال إلى الحداثة على أنها مشروع نهضوي شامل تندرج فيه شتى قطاعات المجتمع: الاجتماعية والفكرية والأدبية ، وتتضح طبيعة الحداثة من حيث هي ظاهرة اجتماعية بالدرجة الأولى، مما يستدعي بالضرورة تعدد مجالاتها، ووظائفها ومن أبرزها: " تحرير النفس العربية ، تحرير الحياة العربية و العمل دائماً للحرية "[١٨].

---

[٦] هاو، أرفينج، فكرة الحديث في الأدب والفنون، ترجمة جابر عصفور ،ابداع ع٥، السنةالثانية،١٩٨٤، ص٢٧.

[٧] الشابي، نور الدين، نيتشة ونقد الحداثة، ص٥٤.

[٨] بوديار، الحداثة، ص٣٠٣.

[٩] المرجع السابق ، ص٣٠٣

[١٠] الخال، يوسف ، الحداثة في الشعر، دار الطليعة ، بيروت، ١٩٧٨، ص١٣.

[١١] الخال، يوسف ، دفاتر الأيام، أفكار على ورق، دار رياض الريس للنشر والتوزيع ، ط١، ١٩٨٧ص١٧١.

[١٢] الخال، الحداثة في الشعر، ص١٦.

[١٣] باروت، محمد جمال، تجربة الحداثة ومفهومها في مجلة شعر، قضايا وشهادات، صيف، ١٩٩٠ص٢٥٤

[١٤] خير بك، كمال، حركة الحداثة في الشعر الحديث، ص١٥.

[١٥] لا بد من التنويه إلى أننا لا نتعرض في هذا البحث لتصور الخال التفصيلي للحداثة الشعرية وموقفه من التراث واللغة العربية والشعر العربي الحديث والثقافة الغربية.

[١٦] الخال ، نحو أدب حديث، أدب، شتاء، ١٩٦٣، ص٩.

[١٧] بنيس، محمد، ، حداثة السؤال، ط٢، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٨٨ص١٨٦.

[١٨] هيئة التحرير، في عامنا الثاني، أدب، مجلد ٢، عدد ١، شتاء،١٩٦٣، ص٦.

وبهذا تصبح الحداثة لديه ثورة شاملة تبدأ في ذات الإنسان لتصل إلى صلب الواقع. وهو بهذا التشديد على هذه المسألة يدفعنا إلى اعتبار مشروعه الحداثي مشروع نهضة بالدرجة الأولى[١٩]. يتأكد هذا الحكم حين نجده يعلن: " فالعقل العربي يخوض معركة عصيبة، حتى ليمكننا القول إن قضية العالم العربي الراهنة ، هي قضية النهوض "[٢٠].

وحيث إن فكرة النهضة لا يمكن تصورها إلا في إطارها الحضاري الشامل، فإن الخال يرى، على الصعيد الإبداعي، أن قيام شعر حديث مرهون بنهوض " مجتمع معاصر، مجتمع قائم على نظرة حديثة للحياة، وعلى العلم و التكنولوجيا "[٢١]. و بمعنى أوسع، فإن قيام حداثة اجتماعية ثقافية لا يمكن أن يتحقق إلا في سياق انبعاث ثقافي وعلمي واجتماعي شامل تسير النهضة الفكرية فيه جنبًا إلى جنب مع الجوانب الأخرى: السياسة و الاقتصاد والقانون والرياضيات والفيزياء، علاوة على سائر العلوم النظرية والتطبيقية الحديثة[٢٢].

الحداثة والعصرية:

تشكل علاقة الحداثة بالزمن أحد أهم المحاور التي يتأسس عليها فكر الحداثة حيث يمكننا تعريفها في أبسط صورها بأنها " وعي الذات في الزمن[٢٣] ".

وهذا الوعي بالزمن واضح لدى الخال ، يدلل على ذلك حضور الطاغي في جل القضايا الثقافية والإبداعية التي يتناولها. على أن هذا الحضور ليس مجانيًا أو كميًا، وإنّما هو حضور جوهري مسوّغ يتأسس على وعي حاد به ورؤية جديدة لها خصوصيتها.

ومن أبرز ما يميز هذه الرؤية انشدادها المطلق للحاضر باعتباره زمن الحداثة الذي لا تكتسب هويتها الذاتية إلا به، وهو ما يتضح لنا في قوله : " ومهما قيل في الحداثة يظل القول المهم فيها، أنها موقف كياني من الحياة في المرحلة التي نجتازها "[٢٤]. ومن شأن هذا الموقف أن " يعكس مزاج فترة معينة تطول أو تقصر بفعل العوامل الإنسانية التي أوجدت هذا المزاج ، فهو من هذه الناحية كالزيّ تمامًا "[٢٥]. وهو هنا يتبع خُطى(بودلير) في انشداده للحظة التاريخية الراهنة، وفي احتفائه بالانتقالي والعابر والعارض[٢٦]. ويستند الخال في هذا الفهم إلى حجّة مؤدّاها " أنّ التاريخ، أي الإنسان، لا يعود إلى الوراء، فبعد الكهرباء لن تكون عودة إلى الفحم الحجري إلا عن حاجة واضطرار"[٢٧]. ويكتسب الحاضر هنا خصوصيته بوصفه التجسيد الأمثل لشخصية الحداثة ونزعتها الذاتية المفرطة. وهذه الذاتية لا تظهر إلا بالتعارض مع القديم. ونجده يعمد إلى توظيف جملة من الأمثلة الواقعية المبسطة للتدليل على هذا التعارض، على نحو قوله: " فأنت لا تلبس الطربوش الآن، ولا ترغب الدابّة في التنقل و السفر، كما أنك لا تحب المرأة كما كان يحبها أجدادك "[٢٨].

وإذا كانت الحداثة، كما يفهمها كثير من أتباعها، تمرّدًا على قيم العصر، فإننا نجد لدى الخال، على العكس من ذلك ، حالة من التصالح التام مع العصر والتماهي بمنجزاته الحضارية والثقافية[٢٩]. بيد أن هذا الانشداد للحاضر قد يثير شيئا من الالتباس، وخصوصًا حين يتم النظر إلى الحداثة على أنّها مجرّد قيمة زمنية ، وبذلك يتمّ تفريغها من دلالتها الحقيقيّة من حيث هي " نظرة حديثة إلى الوجود" . وتزداد هذه الإشكالية صعوبة حين يتم النظر إليها على أنها ضرب من الجدّة الشكلية. ولذلك نجده متنبهًا بشكل تام إلى مثل هذه الإشكالية، حيث يسارع إلى الإعلان بأنّ الحداثة " ليست أشكالًا يقتبسها الإنسان أو زيًّا يتزيّا به؛ لأنّ المهم هو ما وراء هذه الأشكال والأزياء، هذا الما وراء نسميه العقلية، فإمّا أن تكون ذا عقلية حديثة أو لا تكون، بمعنى أن تأخذ بالجوهر لا بالمظهر"[٣٠]. فليست الحداثة من هذا المنظور قيمة زمنية، على الرغم من أهمية العامل الزمني فيها؛ فثمة حداثة خادعة يكون التعامل معها مقتصرًا على جانبها المادي أو الشكلي.

وهذه النظرة تؤدي إلى تشويه الحداثة من حيث هي، بالدرجة الأولى، قيمة إبداعية ورؤية حديثة. وهي تقودنا إلى (وهم الشكلية) كما يطلق عليه أدونيس[٣١]، وهو ما يتطابق مع تصور الخال؛ إذ لاحظ أن كثيرًا من الشعراء العرب المعاصرين قد فهموا الحداثة في الشعر على أنها مجرد شكل حديث مغفلين بذلك الجانب الأهم في الحداثة وهو المضمون أو الرؤية، ونجده يصرح "

---

[١٩] باروت، تجربة الحداثة ومفهومها في مجلة شعر، مرجع سابق ، ص٢٥٥.

[٢٠] الخال، ، دورنا في معركة النهوض ، أدب ، عدد ١ ، شتاء ،١٩٦٢ ص٥.

[٢١] الخال، نحو أدب حديث، ص٨.

[٢٢] الخال، دورنا في معركة النهوض، ص٦-٧.

[٢٣] أبو ديب، كمال،، الحداثة، السلطة، النص، فصول، مج٤، ع٣، ١٩٨٤ ص٣٥.

[٢٤] الخال، الحداثة في الشعر، ص١٦.

[٢٥] الخال، دفاتر الأيام، ص٣١١.

[٢٦] الشابي، نور الدين، نيتشه ونقد الحداثة، ص٤٥.

[٢٧] الخال، دفاتر الأيام ، ص١٧١.

[٢٨] المرجع السابق، ، ص١٧١

[٢٩] يعني بها قيم الثقافة الغربية ، والأنكلو أمريكية بالتحديد

[٣٠] الخال، الحداثة في الشعر، ص١٦

[٣١] أدونيس، فاتحة لنهايات القرن، دار النهار بيروت، ١٩٨٩، ص٣٢٢.

بأن عددًا لا يستهان به من المتحررين شكلا لا محتوى يزيفون حقيقة هذه الحرية ويصطنعونها ويسيئون إليها "٣٢؛ إذ إن هذه الأشكال الحديثة في جوهرها انعكاس لموقف حديث .

إن تأكيد الخال على هذه المسألة نابع من وعيه العميق لجوهر الحداثة، ومحاولته لإنقاذها مما علق بها من سوء فهم، كما أنه ناجم عن معاينته لتجليات الحداثة في الوعي العربي، حيث يتم التعامل مع إفرازات الحداثة المادية والتقنية كالسيارة والطيارة والتلفزيون، وما إلى ذلك من نتاج العلم الحديث ، دون النظر في مرجعيتها الفكرية أو ما يطلق عليه " روح العصر" أو " الأسباب الروحية والعقلية "[٣٣]. حيث إنّ استقبال الحداثة في المجتمع العربي يكشف عن وقوعه في شَرك الازدواجيّة حيث إنه يفتح الباب على مصراعيه أمام المعطيات المادية الحديثة فيما يظلّ يتوجّس من الانفتاح الثقافي، وهو ما يفرز في النهاية حداثة شكلية لا تستند إلى جذور فكرية متينة؛ إذ إن "الحداثة لا تكمن في التقنية، بل في النظام المعرفي الذي تقوم عليه"[٣٤]

ولعل من أكثر المسائل إشكالية في الحداثة موقفها من الماضي أو التراث. ونلحظ أن الخال من الناحية المبدئية يقف موقفًا إيجابيًّا منه، فهو لا يدعو إلى القطيعة معه وإخراجه من دائرة الإبداع؛ فهو يرى أن الحداثة " لا ترتبط بزمن"[٣٥]، فهي لا تخص الحاضر وحده بقدر ما تخص الماضي. كما أنها لا تعني التعارض معه، فهي " لا تمتاز بالضرورة على القدامة فيه، ولكنها تفترض بروز شخصية شعرية ذات تجربة معاصرة "[٣٦]. ويؤكد في سياق آخر على أن الحداثة " مفهوم لا ينقض ولا يلغي المفاهيم التي سبقته، بل ينطلق منها على أبعاد تعبر تعبيرًا أكثر صدقًا عن روح العصر، وهذا هو حال التراكم في الفكر الإنساني"[٣٧].

وبذلك يتضح بأن موقف الخال من الماضي موقف إيجابي ينهض على ضرورة إقامة جسور متينة معه، استنادا إلى ما يتضمنه من رؤىً وقيم متجددة .[٣٨] وهكذا تغدو الحداثة، من منظوره، بؤرة مكثّفة تنصهر فيها شتى الأزمنة، وتتأسس من خلالها علاقة جدلية بين الماضي والحاضر، وتبعًا لذلك يغدو الماضي بما يمتلكه من سيرورة مصدراً للقيم المتجددة القادرة على إثراء الحاضر. كما يسهم الحاضر في الوقت ذاته في إضاءة الماضي والكشف عما يتضمنه من أبعاد حداثية متجددة.

الحداثة تحول دائم:

يمكن النظر إلى الحداثة على أنها وعي خاص بالزمن من بوصفه صيرورة دائمة ، لا بوصفه شيئاً رياضياً بل بوصفه حاملاً للتغير، فهي "وعي الزمن بوصفه حركة تغير وتقدم إلى الأمام "[٣٩].

تشكل الصيرورة أحد الأسس الفكرية التي تستند عليها الحداثة، وهو ما يؤكده حضورها الطاغي في المرجعيات الفكرية ، حيث تظهر بوصفها منطلق الفكر الحديث ونموذجه الفكري ، و يعبر أحد المفكرين عن هذه المسألة بقوله: إنّ " الخطوة الجديدة الكبيرة في النقد الحديث إحلال مقولة الصيرورة محل مقولة الجوهر أو الكينونة، مفهوم النسبي محلّ مفهوم المطلق، والحركة مكان الثبات"[٤٠].

في ضوء هذا الاهتمام بفكرة الصيرورة في الفكر الحديث نستطيع تسويغ حضورها الاستثنائي في فكر الخال إلى الحدّ الذي يدفعنا إلى القول: إنّ " مفهوم الحداثة في فكره يرتبط ارتباطاً جوهرياً بالصيرورة، وما هي إلا وجه من وجوهها "[٤١]. إذ إن نظرته إلى الوجود " نظرة ديناميكية تقول بصيرورة الوجود وتغيره الدائم وحركته المستمرة "[٤٢]. وقد برز تأثير هذه الفكرة في رؤيته للحياة والوجود ، وعلى نحو أوضح في موقفه الحاسم من الثقافة السائدة بكل مكوناتها، وبالأخص في "مناهضته الدائمة للجمود والتطرّف، وإعادة النظر المستمرّة في الأشياء"[٤٣].

فهي تعد إحدى أهم الركائز الفكرية التي تقوم عليها نظرة الخال للوجود كما يتضح في تعريفه للحداثة ، فهي " حركة إبداع تماشي الحياة في تغيرها الدائم"[٤٤]. ويظهر هذا الحضور في قوله :" الحياة لا تقبل الجمود، حين تبدو لك جامدة، تكون في خفية عنك متحركة، فهي كالبركان الذي يتّقد ثمّ لا يلبث يوماً أن يتفجر، كل ما يعمل عن قصد، يعمل في صالح الحياة منطقها هو الغالب، وهو

---

[٣٢] المرجع السابق، ، ص٥١

[٣٣] المرجع السابق، ص١٦

[٣٤] باروت، محمد، تجربة الحداثة ومفهومه في مجلة شعر، ص ٢٥٥.

[٣٥] الخال، الحداثة في الشعر، ص١٥

[٣٦] المرجع السابق، ص١٥

[٣٧] الخال، دفاتر الأيام، ص١٧١.

[٣٨] نشير هنا إلى أننا نطرح موقف الخال العام من الماضي، حيث لا يتسع المقام لتناول موقفه الإشكالي من التراث العربي والثقافة الغربية الذي تبنته مجلة " شعر"، وقد أحدث جدلا واسعا في النقد العربي.

[٣٩] أبو ديب، كمال، الحداثة، السلطة، النص، مرجع سابق، ص٣٥.

[٤٠] سبيلا ، محمد وبنعبد العال ، عبد السلام ، الحداثة ، ط٢، دار توبقال، تونس ، ٢٠٠٠: ص ١٥– ١٦

[٤١] الساسي، جاك،، يوسف الخال ومجلته شعر، ص١٣٩.

[٤٢] المرجع السابق، ص١٣٩

[٤٣] المرجع السابق، ص١٣٨.

[٤٤]الخال، الحداثة في الشعر، ص١٧

كذلك الأصح، وما التمرد أو الثورة إلا سلاح من أسلحتها الجديدة "[٤٥].

وتتأكد هذه العناية في ذهابه إلى اعتبارها أهم الأسباب الروحية والعقلية المشكلة لوعي الحداثة حيث يؤكد على أنّ " صيرورة الأشياء بمقام كينونتها. نقول ذلك عالمين أن الصيرورة هي الأصل، فالشيء يكون أولاً ثم يصير، لكن صيرورته في جوهر كينونته"[٤٦]. واستناداً إلى ذلك تغدو الحداثة في معناها الدقيق " حركة إبداع تماشي الحياة في تغيرها الدائم"[٤٧].

إن تشديد الخال على الصيرورة لم يكن مجرد ترف فكري، بل إنّ له ما يسوغه من الوجهة الفكرية ، فهو يعبر عن وعيه التام بأهميتها الفكرية وخطورتها العمليّة في إحداث التحولات الحضارية الشاملة، على نحو ما حدث في الغرب من إحداث تحولات كبيرة وجذريّة تجسّدت في ثورات شاملة على مختلف المستويات: السياسية والعلمية والثقافية والاجتماعية. وإذا كانت فكرة الصيرورة قد ساهمت في إحداث انعطاف تاريخي في الغرب فإنّها، تصبح ، في نظره، أكثر إلحاحًا للمجتمع العربي من أجل تجاوز ركوده وتحقيق نهضته الشاملة.

والملاحظ في هذا التصور للصيرورة أنها تكتسب منطق القانون الكوني الشامل الذي يتحكم بحركة الحياة ويفرض سطوته عليها من خلال ما يشبه الحتميّة التاريخية، وتتضح هذه النظرة بصورة جلية في تصوره لحركية الشعر، فنجده يقول: " فحيثما يطرأ تغيير على الحياة التي نحياها فتتبدل نظرتنا إلى الأشياء يسارع الشعراء على التعبير عن ذلك بطرائق خارجة على السلفي والمألوف "على أن هذا التطور يبدو حتميا بحيث " يصير دون استشارتنا، ونحن نكون غير حديثين، أي سلفيين جامدين متزمتين مغلبين في آخر الأمر، حين نقف في وجه صيرورته"[٤٨].

ثمّة التباس في هذا التصور، فهو يثير جملة من التساؤلات حول العلاقة بين الواقع والفكر، وعن دور الثقافة والإبداع في عملية التغيير الحضاري. وإذا كنا نوافق من الناحية المبدئية على أن التغير في الواقع يؤدي، من جهة، إلى إحداث تغيير في البنية الفكرية و الإبداعية على اعتبارعامل الزمن، وعلى كونه، من جهة أخرى، المحرك الأساسي في التغيير الاجتماعي الشامل بما يفرزه من تصورات ورؤى جديدة جديدة، فإننا ننظر بشيء من الحذر إلى فهمه لطبيعة هذا التأثير؛ إذ لا نجد لديه أدنى اهتمام بآلية حدوث التغيير، حيث يؤكّد على أن التغيير "يصير دون استشارتنا". ومعنى هذا أنه بصورة ميكانيكية وليس من خلال تحول اجتماعي ثقافي شامل تقوم به شتى المجتمعات الإنسانية .

علاوة على ذلك نلحظ من الناحية المنهجية أن الخال يخلط بين التغير على مستوى الطبيعة حيث يحدث في حالات كثيرة بدون تدخل مباشر من الإنسان وبين التغير على مستوى الفكر والثقافة، حيث يلعب الإنسان الدور الحاسم فيه . بمعنى آخر: أنه يحاكم الظواهر الإنسانية على أسس قوانين الطبيعة، مغفلاً بذلك الفاعلية الإنسانية في عملية التغيير، وهو في هذا التصور يقع في تناقض صارخ مع النزعة الإنسانية للحداثة التي يشكل الإنسان أهم ركائزها.

إن متابعتنا لفكر الخال في شتى تجلياته تكشف عن حضور فكرة الصيرورة لديه وعلى الأخص في رؤيته للحداثة الشعرية، فهو يستند إلى تعريفه للحداثة من حيث هي " حركة إبداع تماشي الحياة في تغيرها الدائم"[٤٩]، وتبعا لذلك يخضع الشعر للتغيرات الطارئة على الحياة، وتصل العلاقة بينهما إلى حدّ التلازم، بحيث يقتضي التغير في الحياة بالضرورة تغيرا شاملا وجذريا في مفهوم الشعر، ويصوغ هذه المسألة على الشكل التالي: " الشعر يستمدّ مفهومه ووجوده من الحياة، فإذا تغيرت الحياة تغير الشعر، فإذا كان لا يتغير فمعنى ذلك شيئان: إمّا أن الحياة توقفت وإما أن الشعر قد توقف متحدياً الحياة "[٥٠].

ولمّا كانت التغيرات الجديدة تفضي إلى تصورات جديدة ورؤى جديدة للوجود، فإنّ هذه التصورات ستؤدي، بدورها، إلى إحداث تغير جذري في الشعر يظهر في صورة: تجربة شعرية جديدة ذات تجربة حديثة تكتسب خصوصيتها وفرادتها، " فحيثما يطرأ تغير على الحياة التي نحياها، فتتبدل نظراتنا إلى الأشياء، يسارع الشعر إلى التعبير عن ذلك بطرائق خارجة عن السلفي والمألوف "[٥١].

ولذلك يغدو تجاوز القصيدة المفهوم التقليدي بمضامينها وأشكالها أحد متطلبات هذا المفهوم الجديد، وهو أمر تقتضيه فكرة الصيرورة بما تتضمنه من نسبيّة الإبداع وتغيره تبعا لعامل الزمن " فما يسمونه عمود الشعر، إنّما هو خصائص اكتسبها الشعر في مرحلة ما من مراحله تطور بتطور نظرتنا إلى الحياة، وكيفية معاناتها"[٥٢].

الحداثة ونزعتها الإنسانية:

---

[٤٥] المرجع السابق، ص١٣٩.

[٤٦] المرجع السابق ص١٦

[٤٧] المرجع السابق، ص١٧.

[٤٨] الخال، الحداثة في الشعر ، ص١٧

[٤٩] المرجع السابق، ص١٧

[٥٠] الخال، دفاتر الأيام ، ص٣٩٥.

[٥١] الخال، الحداثة في الشعر، ص١٧

[٥٢] الخال، دفاتر الأيام، ص٣١

تبدأ الحداثة بلحظة وعي الذات بوجودها الاستثنائي وقدرتها على تأسيس عالمها الخاص. وقد تحقق ذلك من الناحية التاريخية في الغرب في عصر النهضة فكانت بمثابة افتتاح للنزعة الإنسانية (humanism)، بتمحورها حول الإنسان واتخاذه مركزا للكون، وهي بذلك تتجاوز الموقف اللاهوتي الذي يجعل الإنسان خاضعا لقوة متعالية . وقد ترسخت فكرة الذاتية بصورة أكثر اكتمالاً ونضجًا في عصر التنوير، ويعرفه (كانط) على النحو التالي: " التنوير هو تحرر الإنسان من الوصاية القائمة بداخله وهذه الوصاية تعني عجز الإنسان عن الاستفادة من قدرته على الإدراك والفهم دون توجيه من أحد "[٥٣].بهذا التعريف يتضح لنا سعي كانط إلى إخراج الإنسان من حالة القصور المعرفي، وإلى تكريس قدرته على مجابهة الواقع بنفسه واستعادة الثقة الكاملة بنفسه.

نجد لدى الخال أصداء لهذا الانشغال بالنزعة الإنسانية بتمحورها حول الذات ، ففي تعريفه للحداثة يرى بأنها " نظرة إلى الحياة بما فيها الإنسان والوجود"[٥٤] . وحجر الزاوية في هذا التعريف الإنسان، وتبدو علاقته بالحداثة علاقة وثيقة تصل إلى درجة التماهي، إذ لا يمكن نهوض الحداثة في نظره بدون حضور الإنسان بدوره الفاعل، فهو محور الحداثة، والغاية التي تطمح إليها، يعبر عن هذه الفكرة قائلاً: " حين نتمرد لا نتمرّد من أجل الشعر بل من أجل الإنسان، الشعر وسيلة أمّا الإنسان فوحده الغاية"[٥٥] .

وبهذا التصور الحاسم في توجهه صوب الإنسان يسهم الخال في تكريس النزعة الإنسانية في النقد العربي. وقد برز الاهتمام بهذه النزعة تاريخيا في سياق الانفتاح على التيارات والمذاهب الفكرية والنقدية العالمية، بتأثير الظروف السياسية التي تزامنت مع نهاية الحرب العالمية الثانية بما أفرزته من تحولات اجتماعية وفكرية جذرية أسفرت فيما أسفرت عن وجه جديد لعلاقة الإنسان بالإنسان، وعلاقة الإنسان بالوجود[٥٦] .

يرصد الخال جذور هذه النزعة وتجلياتها في الفكر الغربي، حيث إنها تمثل من الناحية التاريخية بدء العصر الحديث، وذلك " حين وعى الإنسان قدرته، وأخذ يعرب عن وجهة نظره الفردية إلى نفسه والله والإنسان"[٥٧]. وقد ترتب على هذا الوعي بروز رؤية جديدة تتأسس على إحداث قطيعة معرفية مع العقلية التقليدية في نظرتها الهامشية للإنسان ودوره في الوجود، وتبعا لهذه القطيعة فإن" نظرة الإنسان إلى الواقع تغيرت جذرياً، وإذا تغيرت كان على العالم أن ينهار لينهض على أنقاضه عالم جديد"[٥٨]. وبتحقيق هذا الانفصال عن الماضي بتقاليده تحققت للإنسان، ولأول مرة، استقلاليته الذاتية، فوجد نفسه وحيداً " في عالم لا قواعد ثابتة له، عالم على ساكنيه أن يعيدوا بناءه بأيديهم وعلى صورتهم ومثالهم ، وهكذا أصبح الإنسان أكثر من أي وقت مقياس كل شيء"[٥٩] .

وقد أفضت هذه النظرة إلى تصور جديد للإنسان اكتسب من خلاله دورا استثنائيا مكّنه من استرداد ثقته بنفسه، ليكون سيد الطبيعة القادر على إخضاعها وفك مغاليقها[٦٠].غير أن الإنسان لم يصل إلى هذه المرحلة إلا بعد رحلة طويلة من الصراع مع الفكر الميتافيزيقي ، فقد ظل لفترة طويلة خاضعًا لتأثير القوى الغيبيّة المتمثلة في قوى الطبيعة أو في نظام إلهي أبدي وفي سعيه الدؤوب وجد نفسه في النهاية أمام نظام من صنع يديه لا استئناف لأحكامه إلى سلطة عليا[٦١]،. وبهذا تحقق له الاستقلال التام عن هذه القوى ، وتخلّص من الوصاية الطويلة التي فرضتها عليه ووقفت حجر عثرة أمام اكتشاف ذاته. وبفضل هذا الوعي تولّدت لديه المقدرة على خلق عالمه الخاص ووضع تصوراته الملائمة له.

على أن هذا الإحساس الحاد بالذات بما رافقه من انفصال القوى الغيبيّة، أفضى إلى حالة من التبعثر والتمرد والحيرة والقلق غدت سمة عصرنا الحاضر. وقد ازدادت هذه الحالة حدة بعدما وظف الإنسان، هذه المقدرة التي استردها توظيفاً سلبياً متبعا من وسائل الهدم ما ترتجف له القلوب[٦٢] . لقد أفضى هذا الاغتراب إلى أزمة حضارية عارمة شهدتها أوروبا منذ القرن التاسع عشر وامتدّت لتهيمن على أجواء القرن العشرين، وقد عبر عنها شعراء الغرب من أمثال بودلير ونرفال وبو ورامبو حيث كشفت إبداعاتهم عن أزمة هوية حقيقية يعيشها الغرب ؛ بسبب غياب المعنى ، واهتزاز الإنسان وإحساسه بفقدان تفوقه الذاتي، على الرغم من التطور المادي الهائل[٦٣] .

لقد أفرزت الحداثة الغربية في جانبها المادي أزمة حضارية إلى ما أطلق عليه (نيتشيه) العدمية للدلالة على غياب القيمة والغاية وتلاشي معنى الحياة في الحضارة الأوروبية٦٤. وقد تجلت بشكل واضح في الأدب الغربي وصبغته بصبغتها المأساوية. وكان من نتائجها أن أعلن الفنان المعاصر انسحابه من الواقع معتصماً بالفن باعتباره ملاذه الوحيد في مواجهة عبثية الحياة.

---

[٥٣] النحوي، عدنان، تقويم نظرية الحداثة، دار النحوي ، الرياض، ١٩٩٢، ص٣٠.

[٥٤] الخال، دفاتر الأيام، ص١٧١

[٥٥] المرجع السابق، ، ص١٧١

[٥٦] الخال، الحداثة في الشعر، ص٧٩

[٥٧] الخال، نحو أدب عربي حديث، ص ٩

[٥٨] الخال ، نحو أدب عربي حديث، ص٩

[٥٩] المرجع السابق، ، ص٩

[٦٠] الخال، الحداثة في الشعر، ص٩

[٦١] الخال، نحو أدب عربي حديث، ص٩

[٦٢] المرجع السابق، ص٩

[٦٣] تتضح معالم هذا الاغتراب في التجربة الشعرية للخال.

[٦٤] الشابي، نيتشيه ونقد الحداثة ، ص٤٥

من جهة أخرى يؤكد الخال على الجانب الذاتي للحداثة وضرورة تأسيسها لقيمها الخاصة بحيث يغدو الإنسان مصدرها الوحيد . وهو ما يعده أحد أهم الأسباب الروحية والعقلية للحداثة ، حيث إن " ما يصنعه الإنسان من نظم وقوانين ومبادئ تظل دون الإنسان لا فوقه، فما سيدته، بل إنما هو سيدها فهو الذي وضعه لخيره، وله من الحرية في تعديلها أو تغييرها ساعة يعتقد أن خيره في هذا التعديل أو التغيير "[٦٥].

ولعل أهم ما يطرحه هذا النص مسألة الحرية، فهي تشكل جوهر المفهوم الجديد للإنسان، وتكتسب من المكانة ما يجعل منها أقدس ما في الوجود، ويذهب الخال إلى أبعد من ذلك حين يمنحها سمات إلهيّة ، فهي لا تعطى من إنسان إلى إنسان ، ولا حق لإنسان أن يسلبها من الإنسان، وإنما تعطي من الله. ولهذا كله فإنها تغدو حاجة أساسية ملحة لا يمكن التفريط فيها، إذ إن فقدانها من حياة الإنسان يشكل خطراً على كينونته، وعندها تغدو الثورة من أجل استردادها أمرا مشروعًا بل واجبًا[٦٦]. تبعاً لذلك، يتم تقييم التيارات والمذاهب الفكرية والنقدية استنادا إلى مدى الحضور الإنساني فيها، ويذهب إلى بطلان كل تصور أو ممارسة لا تجعل من الإنسان هدفها الأساسي " فكل نظرية وكل عمل لا ينهض على أساس الحرية ، إنما هو عمل ضد التاريخ "[٦٧].

ما يشدد عليه الخال في مسالة الحريّة هو الجانب الفردي أو الكياني الذي تتجلّى فيه صورة الإنسان بكل ملامحها الوجودية ، في " ألمه وفرحه، خطيئته وتوبته، حريته وعبوديته، حقارته وعظمته، حياته وموته"[٦٨]. وهو في هذا التشديد على هذا الجانب يذهب إلى اعتباره المحور الذي تتأسس عليه الحداثة إذ هي في جوهرها "موقف كياني من الحياة "[٦٩].

تكشف متابعة مشروعه الفكري والنقدي عن انشغاله بهاجس الفردية. ونجده بشكل خاص في إلحاحه المتكرر على نهوض عقلية حديثة تهدف إلى " وضع المسلمات والأفكار الجاهزة والتقاليد المتوارثة على محك العقل الناقد "[٧٠]. وتظهر على المستوى الفني في دعوته إلى التحرر من القواعد الموضوعة، وإلى إطلاق الشعر من كل مبدأ أو شروط، ومن جميع القوالب الفنية المفروضة على الشاعر من الخارج "[٧١].

وقبل أن نتجاوز مفهوم الحداثة عند الخال ونزعتها الإنسانية على وجه التحديد نتوقف عند أبرز مرجعياتها الفكرية، إذ نجده يتغذى من منابع فكرية متنوعة من أبرزها: العقلانية والوجودية والمسيحية. وما يجمع بين هذه الفلسفات المتباينة هو احتفاؤها الخاص بالإنسان. غير أنّ هذا الجمع يثير بعض الإشكاليات إذ إن لكل منها رؤيتها الخاصة للإنسان والوجود تصل إلى حد التناقض أو ما يمكن أن نطلق عليه (ازدواجية فكرية) . وقد أشار (مُحَمَّد جمال باروت) إلى وقوع الخال في التناقض، وتحديداً في جمعه بين العقلانية بما تنطوي عيه من نزعة إنسانية طبيعية تتأسس على رؤية إيجابية للعالم جوهرها العقل والعلم، وبين الوجودية في نزعتها التشاؤمية والانسحابية المعادية للعلم والعقل، أو بمعنى آخر بين الحداثة بوصفها مفهوماً يشير إلى التقدم وبين الحداثوية كنزعة أيديولوجية تقوم على العزلة الانطوائية للفرد[٧٢].

ونضيف إلى ذلك مثالا آخر تتضح فيه هذه الازدواجية الفكرية حيث نجده على الصعيد الاجتماعي والسياسي يتبنّى العقلانية ممثلة بالنموذج الليبرالي الذي يمثل النموذج الأكمل للحرية برأيه، في حين نجده، على الصعيد الفني، يتبنّى موقفاً ميتافيزيقيا يتجاوز الوظيفة الاجتماعية للشعر.

وهذا الجمع بين المتناقضات يؤكد إحدى سمات الحداثة الجوهرية ونعني بها "التناقض". إذ ثمة إجماع لدى الباحثين على أن " الحداثة تحتوي على تناقضاتها الداخلية "[٧٣]. ويوضح أحد مؤرخي الحداثة الغربية هذه المسالة بقوله: " لقد كانت الحداثة في أغلب البلدان مركباً غريبا من المستقبلية والعدمية، من المحافظة والثورية، من الطبيعية والرمزية، من الرومانسية والكلاسيكية، كانت ترحيباً بالعصر التكنولوجي واستهجاناً له... بأن أشكال التعبير هي هروب من التاريخ والإيمان بالوقت نفسه بصدق تلك الأشكال بالتعبير عن الزمن "[٧٤].

وربما يكون لهذا التناقض ما يسوغه من الوجهة النفسية والفكرية، ومن أبرز هذه المسوغات: طبيعة الحضارة الحديثة بتعقيداتها

---

[٦٥] الخال، الحداثة في الشعر، ص ١٦

[٦٦] الخال، دفاتر الأيام ، ص٦٤

[٦٧] المرجع نفسه، ص٧٧.

[٦٨] الخال، " مستقبل الشعر في لبنان" ، ضمن عهد الندوة اللبنانية، المطبعة العربية، بيروت، ١٩٧٩ ، ص٣٤٤.

[٦٩] الخال ، الحداثة في الشعر ، ص١٦.

[٧٠] الساسي، جاك، يوسف الخال ومجلته شعر، ص١٤٢.

[٧١] المرجع السابق، ص١٤٢.

[٧٢] باروت، تجربة الحداثة ومفهومها في مجلة شعر ، ص٢٦٠.

[٧٣] بروكر، بيتر، الحداثة وما بعد الحداثة، ترجمة عبد الوهاب جلوب، المجمع الثقافي أبو ظبي، ١٩٩٥، ص٣٣.

[٧٤] برادري، ومكفارلين، الحداثة، ج١، برادبري، مالكم وماكفارلين، مالكم، الحداثة، ترجمة: مؤيد حسن، دار المأمون، بغداد، ١٩٨٧، ص٤٧.

ومفارقاتها، ونجد أصداءها بوضوح في الواقع العربي في شتى المجالات، ومنها الثقافي ، وقد قادت المرحلة التاريخية بسياقاتها السلبية إلى وقوع المثقف العربي في حالة من التشويش الفكري والفوضى الثقافية العارمة تسببت في هذه الازدواجية ، فهو يحلم بالنهوض الحضاري ويراهن عليه ، لكنه في الواقع يعاين فشله وسقوطه بسبب هيمنة التخلف والاستبداد ، مما يدفعه إلى موقف انسحابي وعدمي.

الحداثة العربية وموقفها من الغرب:

لعل أكثر المسائل إثارة للجدل في الحداثة العربية علاقتها بالثقافة الغربية والملاحظ أن المفكرين والنقاد العرب انقسموا في تقييمهم لطبيعة هذه العلاقة فريقين رئيسين: فريق ينظر إلى الحداثة العربية من خلال تبعيتها للثقافة الغربية، وبذلك يتم تجريدها من هُويتها الذّاتية وتغدو مجرد استنساخ للآخر. أمّا الفريق الثاني: فيؤكّد على أنّ الحداثة العربية، وإن استلهمت ثقافة الغرب، فإنّها ليست تابعة للحداثة الغربية وإن استلهمت قيمها وأصولها وأدواتها الإبداعية والمعرفية.

فأزمة الثقافة العربية كما يذهب أصحاب التيار الأول تكمن في تبعيتها الثقافية والفكرية حيث تتحول إلى ما يطلق علية هشام شرابي (الحداثة الصنمية) أو(الحداثة الأبوية) حيث تتحول النماذج الغربية في كل مجالات الحياة ومنها الشعر إلى أصنام، وتغدو الثقافة العربية مجرد ترجمات لهذه النماذج وحينئذ تصبح حداثةً مشوهة وزائفة[٧٥]. ونظراً لغياب الشروط المادية اللازمة لقيام الحداثة الفكرية في المجتمع العربي على عكس ما حدث في الغرب فقد اتسمت علاقة العرب بالحداثة الغربية باللاتاريخية حيث تم تجاوز خصوصية الثقافة العربية وما تحتاجه من قيم وتصورات ملائمة لها.

فيما يتعلق بالخال، تكشف مرجعياته المتنوعة، بداية، عن انفتاحه غير المحدود على التيارات الفكرية والنقدية الغربية ، وتحسسه بعمق ووعي لما تنطوي عليه من قيم وتصورات إنسانية تتسم بالنزعة التحررية والتحديثية ، فنجده ينقّب فيها بشكل متواصل بحثا عن هذه القيم. كما تكشف هذه المرجعيات عن قراءته الدقيقة للواقع العربي في سياق تحولاته ، ومدى حاجته لمثل هذه القيم الثورية الجديدة لتحقيق النهضة التاريخية المرجوة بكل أبعادها وبخاصة الإبداعية .

وعلى الرغم من أهمية هذا الانفتاح على الثقافة الغربية إلا إنه ، كما يظهر في نموذج الخال، يسهم في تعميق إشكالية علاقة الثقافة العربية بنظيرتها الغربية، حيث يشكل الغرب بتجلياته الثقافية الشاملة نموذجاً حضاريًا مهيمنًا له القدرة المطلقة على السيرورة واختراق الحدود الجغرافية كما يبدو نموذجا متعاليا يتمثل كرؤية متكاملة ومتماسكة للعالم ، وغير خاضعة للفحص و النقد .

وهنا نعثر عن المأزق الحقيقي لمشروعه الحداثي وإحدى ثغراته الجوهرية ، والتي تتجلى بالتحديد في سعيه المتواصل لصياغة تصورات ومفاهيم غربية الملامح، وفي محاولاته الرامية إلى التبشير بها كتصورات نهائية. لا نجد لدى الخال اهتماماً فعليا بفكرة إعادة النظر في الثقافة الغربية ،على غرار ما حدث في الفكر الغربي من بروز تيارات مهمة تنهض على نقد الحداثة الغربية ومنها على سبيل المثال مدرسة فرانكفورت. فيما نجده يكرس جهدا كبيرا في نقد التراث العربي. استنادا إلى هذا التصور، تبدو الثقافة الغربية وحدة متكاملة منسجمة مع ذاتها، ولا تعاني من أي أزمة فكرية أو إبداعية، ولا تتعرض عبر سياقها التاريخي الطويل لما يعطل سيرورتها الفكرية والإبداعية، مثلما يحدث في شتى الثقافات .

إنّ رؤية الخال للثقافة الغربية كنتاج فكري وإبداعي استثنائي ومهيمن قاده إلى تجاوز الجانب الاجتماعي للحداثة العربية ، وعدم البحث عن مدى ملاءمة النموذج الغربي للشروط الاجتماعية و الثقافية في المجتمع الغربي. فعلى الرغم من أن الحداثة العربية " كمشروع حداثي ينطلق من خصوصية الثقافة العربية واستجابة للمتغيرات الجذرية التي شهدها المجتمع العربي"٧٦، فأننا لا نلحظ لديه أدنى عناية بهذه المسألة، بقدر هو مشغول بضرورة انفتاحها على الثقافة الغربية والأنجلو أمريكية على وجه التحديد .

ولا شك أن مثل هذا التوجه اللامحدود نحو الثقافة الأنجلو أمريكية يثير تساؤلًا حول إمكانية اختزال الحداثة في نموذج واحد عالمي و مطلق ، وهو ما يتعارض مع أساس الحداثة الذي يفترض أن " لكل حداثة نموذجها الخاص نسقها المعرفي المتميز أسئلتها التي ارتبطت بهمومها ، وهي لا تشترك مع غيرها من الحداثات إلا من الملامح الثقافية التي يكتفي بها "٧٧.

لقد قامت نظرية الخال الفكرية و الشعرية على استلهام النموذج الغربي بصورة مطلقة وصلت إلى حد الذوبان والتلاشي. وعلى الرغم من أنه كان يشير بين الحين و الآخر إلى أهمية التواصل مع الثقافة العربية ، كما كان يؤكد في أحيان عديدة إلى أن الحداثة العربية قد نشأت نتيجة ظروف المجتمع العربي الخاصة وضمن معطياته الثقافية، إلّا أننا مع ذلك لا نشهد لديه في الواقع العملي حضوراً للثقافة العربية ، كما لا نجد لديه أدنى اهتمام بمراعاة إشكالياتها وخصوصيتها وشروطها الاجتماعية والفكرية الخاصة.

---

[٧٥] شرابي، هشام، النظام الأبوي وإشكالية تخلف المجتمع العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٢ ، ص٤٢.

[٧٦] سعيد، خالدة، الملامح الفكرية للإبداع، ص٣١ .

[٧٧] عصفور، جابر، ملاحظات حول الحداثة، ص٦٤ .

ولعل هذه القضايا وغيرها قد عرضت موقفه للانتقاد حيث تم النظر إليه على أنه " حاول أن يجعل الحداثة الشعرية العربية تابعًا للحداثانية الغربية في مفاهيمها المعاصرة، وعلى مستوى الممارسة الشعرية حاول أن يشدّ الشاعر العربي إلى موقف أنطولوجي فلسفي مماثل لموقف الشاعر الحداثاني الغربي "[٧٨].

المصادر والمراجع

أولا: المصادر

يوسف الخال

المؤلفات

١.الخال، يوسف، الحداثة في الشعر، دار الطليعة ، بيروت، ١٩٧٨ .

٢.الخال، يوسف (١٩٨٧) ، دفاتر الأيام، أفكار على ورق، دار رياض الريس للنشر والتوزيع ، ط١

ب__ **الدوريات**

٣.الخال، نحو أدب حديث، أدب، شتاء. ١٩٦٣

٤.هيئة التحرير، في عامنا الثاني، أدب، مجلد ٢، عدد ١، شتاء، ١٩٦٣

٥.الخال، دورنا في معركة النهوض ، أدب ، عدد ١ ، شتاء ، ١٩٦٢

٦.الخال، مستقبل الشعر في لبنان، ضمن عهد الندوة اللبنانية، المطبعة العربية، بيروت، ١٩٧٩.

ثانيا: المراجع العربية

٧. أدونيس، فاتحة لنهايات القرن، دار النهار بيروت، **١٩٨٩.** أدونيس، ها ٨. أدونيس، أنت أيها الوقت، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٣.

٩. بنيس، مُحَمَّد، **حداثة السؤال**، ط٢، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ١٩٨٨.

١٠. طراد، جورج، على أسوار بابل، صراع الفصحى والعامية في الشعر اللبناني الحديث، تجربة يوسف الخال، دار الريس للنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠١

١١.السامرائي، ماجد، تجليات الحداثة ، ط١ ، الأهالي للطباعة والنشر، دمشق ، ١٩٩٥.

١٢. ثامر، فاضل، جدل الحداثة في الشعر في كتاب "الشعر ومتغيرات المرحلة"، ١٩٨٥.

١٣.الشابي، نور الدين، نيتشيه ونقد الحداثة ونقد الحداثة، دار المعرفة، تونس، ٢٠٠٥.

١٤.سبيلا ، مُحَمَّد و بنعبد العال ، عبد السلام ، الحداثة ، ط٢، دار توبقال، تونس، ٢٠٠٤ .

١٥.الساسي، جاك، يوسف الخال ومجلته شعر، ط١ المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، بيروت، ٢٠٠٤

١٦.النحوي، عدنان، تقويم نظرية الحداثة، دار النحوي ، الرياض، ١٩٩٢

ثالثا: المؤلفات المترجمة

١٧.برادبري، مالكم وماكفارلين، مالكم ، الحداثة، تر مؤيد حسن،دار المأمون، بغداد، ١٩٨٧.

١٨. بروكر، بيتر، الحداثة وما بعد الحداثة، ترجمة: عبد الوهاب جلوب، المجمع الثقافي أبو ظبي، ١٩٩٥

١٩. خير بك، كمال ، حركة الحداثة في الشعر العربي المعاصر، ترجمة: لجنة من أصدقاء المؤلف، ط٢، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٦.

رابعا: الدوريات

٢٠. أبو ديب، كمال، الحداثة، السلطة، النص، فصول، مج٤، ع٣. بوديار، الكرمل، ع٣٦ -٣٧ ، ١٩٨٤.

٢٢. باروت، مُحَمَّد، تجربة الحداثة ومفهومه في مجلة شعر، قضايا وشهادات، صيف. ١٩٩٠

٢٢. برادة ، مُحَمَّد، اعتبارات نظرية لتحديد مفهوم الحداثة، فصول مج٤، ع٣، ١٩٨٤.

[٧٨] ثامر، فاضل، جدل الحداثة في الشعر، في كتاب " الشعر ومتغيرات المرحلة "، بغداد، ١٩٨٥، ص٨٩ .

٢٣. عصفور، جابر، ملاحظات حول الحداثة، إبداع ، السنة العاشرة ، فبراير. ١٩٩٢.

٢٤. هاو، أرفينج، فكرة الحديث في الأدب والفنون، ترجمة جابر عصفور،إبداع، ع٥، السنة الثانية،١٩٨٤.

ثالثا: المؤلفات المترجمة

١٧.برادبري، مالكم وماكفارلين، مالكم ، الحداثة، تر مؤيد حسن،دار المأمون، بغداد، ١٩٨٧.

١٨. بروكر، بيتر، الحداثة وما بعد الحداثة، ترجمة: عبد الوهاب جلوب، المجمع الثقافي أبو ظبي، ١٩٩٥

١٩. خير بك، كمال ، حركة الحداثة في الشعر العربي المعاصر، ترجمة: لجنة من أصدقاء المؤلف، ط٢، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٦.

رابعا: الدوريات

٢٠. أبو ديب، كمال، الحداثة، السلطة، النص، فصول، مج٤، ع٣. بوديار، الكرمل، ع٣٦ -٣٧ ، ١٩٨٤.

٢٢. باروت، مُحَمَّد، تجربة الحداثة ومفهومه في مجلة شعر، قضايا وشهادات، صيف. ١٩٩٠

٢٢. برادة ، مُحَمَّد، اعتبارات نظرية لتحديد مفهوم الحداثة، فصول مج٤، ع٣، ١٩٨٤.

٢٣. عصفور، جابر، ملاحظات حول الحداثة، إبداع ، السنة العاشرة ، فبراير. ١٩٩٢.

٢٤. هاو، أرفينج، فكرة الحديث في الأدب والفنون، ترجمة جابر عصفور،إبداع، ع٥، السنة الثانية،١٩٨٤.

Abstract

This research aims to provide a critical reading of the thought of Yusuf al-Khal through approaching his concept of modernity as it seems to him to be a modern and comprehensive vision of reality under which human existence and art fits into. The present study highlights salient features of this concept and its features and its basic elements. It also seeks to identify the most important intellectual and philosophical beliefs that shape it. Additionally, it traces its intellectual roots and its different cultural and critical references. Moreover the study seeks to shed light on a number of problems ,challenges and fantasies of modernity as reflected in the attitude of the past, and the nature of the association with time. The study finally reveals the gaps of this concept , and in particular: in his vision of the nature of modernity's relationship with reality, and in his attitude of the Western culture (specifically Anglo-American) taking it the most complete form of modernity .

Keywords: modernity, heritage, the other, humanism, the magazine "poetry".